جانب من خطاب القرآن الكريم لأهل الكتاب: (النصارى)

د. عمر بن إسماعيل آل حكيم
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية – جامعة الجزائر

المقدمة:

القرآن هدي ورحمة للعالمين، جاء إلى البشرية ليهديها سواء السبيل، وليدفع عقولها إلى التفكر وإلى الوصول إلى الحق وإلى الصواب، وإلى النجاة دنيا وأخرى.

فالقرآن الكريم: (أول ما ينبغي أن يتعلم من علم الله) كما قال المصطفى ﷺ، لا يمكن أن تُفتَح مغاليقُه، ويُتوَصّل إلى إدراك خطابه، إلا اعتمادا على علوم مختلفة، متنوعة ومتعددة، يجب السعي إلى توفيرها بإعداد المدارس في مختلف المستويات، وتوفير الأكفاء من المدرسين، وتطوير الخطط والمناهج للوصول إلى الحقائق اللامتناهية.

وإذا كان موضوعنا اليوم الذي سنعالجه: هو إظهار: "**جانب من خطاب القرآن الكريم لأهل الكتاب: (النصارى)**"، فإنه موضوع حاولنا أن يكون في إطار **أيام الملتقى الثالث للحوار الإسلامي المسيحي**، والذي يهدف إلى معالجة مسألة: **التدريب والتربية من أجل السلام**.

إن أهل الكتاب (النصارى)، أتباع المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام)، أقرب الناس إلى المسلمين، أتباع الرسول محمد بن عبد الله المصطفى الأمين، خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

مداخلتي هذه ستبين هذا المنحى من خلال بعض الإشارات الواردة في القرآن الكريم، متجنبا في آن ما قصده القرآن الكريم من الرّدّ على ما ذهبوا إليه في الاعتقاد والتصورات.

وإن الذي سأعرضه ليس بخاف على كل متخصص، إلا أن هذا المقام يقتضي إبرازه ولو باقتضاب، لتتضح مكانة أهل الكتاب بصفة عامة، والنصارى منهم بصفة خاصة، في ثقافة وفكر ومعتقد المسلمين.

النصارى في ظل الإسلام:

بالقرآن الكريم جانبٌ من الخطاب لأهل الكتاب: (النصارى) لَيِّنٌ لطيف، وهو خطاب يوجد بالقرآن الكريم غيره من الخطاب الذي لا يهادن ولا يداهن، بل يبين بكل وضوح وتفصيل المسائل المتعددة التي تتعلق بأهل الكتاب بصفة عامة، والتي تتعلق بالنصارى بصفة خاصة، والتي تتعلق بـ (المسيح) عليه السلام، وأمه البتول (مريم) عليها السلام بصفة أخص.

إن الخطاب الذي سنظهره في هذا المقام هو ذلك الخطاب المبَيِّن قربَ النصارى من المسلمين كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [1]

هو ذلك الخطاب المُعِدّ جيلا- عند تربية وتكوين الناشئة في العالم الإسلامي- يتعايش مع النصارى تعايشا كله أمن وسلام.

وهذه الحقيقة مسألة أكدتها النصوص الشرعية: الآيات من القرآن الكريم، والأقوال والأفعال من المصطفى ﷺ. وإن سيرته ﷺ المطهرة العطرة، وسيرة الصحابة الكرام من بعده مليئة نماذج تؤكد وتثبت ذلك[2]، وكذلك مسيرة المسلمين من بعدهم، وأكد كذلك الواقع الاجتماعي في تاريخ الحضارة الإسلامية التعايش السلمي بين أتباع الديانتين ولا ينكرها إلا جاحد، وما كان من الصراع فلعوامل وأسباب خارجية بعيدة عن أصول الديانتين.

عَوَاملُ التَّصادُم:

إنّ مدارسة هذه المسألة (السلام)، والحوار الإسلامي المسيحي ينبغي الحذر كل الحذر من مدارستها على ضوء معطيات الواقع المعاصر، لأن أبعادا أخرى، قد اكتنفتها، سياسية وعسكرية واقتصادية، غايتها: التسلط والاستحواذ والهيمنة.

لقد كانت المساعي الاستعمارية المرتبطة بالتبشير مستفزة لمشاعر المجتمعات الإسلامية، في القرنين الماضيين، وكانت تهمة الإرهاب الملصقة بالدين الإسلامي اليوم مُغرِضة ومُضِرة بالمسلمين في مصيرهم الاجتماعي والفردي في كل أنحاء المعمورة.

ونذكر في هذا المقام مثالين اثنين يتزامنان مع انعقاد مؤتمرنا هذا:

بالأمس فقط: (09 جويلية2011 م) كان الاحتفال بنشأة الدولة الجديدة: (جنوب السودان)، الغنية بالثروات، المنفصلة عن دولة (السودان) الأم، بعد أن اتخذَتْ القوى الخارجيةُ المساعيَ للتفريق بين الشمال والجنوب، أيام الاستعمار البريطاني الإنجليزي للسودان، فأُنشِئَت الكنائس وأُبعِد الحرف العربي، ثم كانت الفتنة والاقتتال ومحاولة الانفصال، ثم كان الاستفتاء، فالانفصال، وهي النتيجة المرغوب فيها، والمخطط لها.

واليوم: 10جويلية2011 م، بـ(البوسنة) مسيرات من المسلمين إحياء لذكرى مقتل آلاف المسلمين من قبل الصرب وبحضور القوات الدولية الغربية، في تصفية عرقية، أبعادها دينية.

وهو أمر قد حصل عندنا بالجزائر مع المستعمر، عندما اقتحم بلادنا، فأول ما قام به: تحويل بعض المساجد الهامة إلى كنائس، وحاول أن يزرع كنائس في مختلف المناطق من الوطن، ولكن أنى له ذلك.

هذه نماذج قريبة منا، ذكرناها للتنبيه، ولفت النظر إلى أن عوامل- من غير الدين- موجودة في الواقع، تزرع الفتن والصراع، وتزيل التعايش السلمي بين الأمم. ولا بد لمثل هذه التصرفات من ردة أفعال، والبادئ أظلم. ولا بد من توضيح الأمور، ما دام موضوعنا الحوار الإسلامي المسيحي، ولا بد من البحث عن الأسباب الحقيقية، إن تأكدت الإرادة للسلام، والرغبة في توفير الأمن، والتعايش السلمي، والاحترام المتبادل.

إن الإسلام قد كرم النصارى وأشاد بهم، وبالقرآن الكريم، كلام رب العالمين، نصوص تثبت جانبا من هذا الإكرام وهذه الإشادة، وسنعرض في مقامنا هذا بعضا منها، ولا يتسع المقام لذكرها جميعا.

أهلُ الكتاب والأنبياءُ والرسلُ أمةٌ واحدة:

يقول الله- جل وعلا- في سورة (المؤمنون)، بعد أن سرد قصص الأنبياء والرسل السابقين بصفة إجمالية، وخص سيدنا نوحا بالذكر، وموسى وعيسى قائلا: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾[3]

وفي سورة (الأنبياء)، يخاطب رسوله المصطفى والمؤمنين به من البشر، ومن الخلق أجمعين، قائلا: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[4] وذلك بعد أن سرد قصص الأنبياء تفصيلا: موسى وهارون وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوطا، ونوحا وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وغيرهم، ثم ختمها- جل وعلا- مبينا شأن العذراء (مريم) وابنها (المسيح) عليه السلام قائلا: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[5]

وهذه المكانة لأهل الكتاب في عقيدة المسلمين وثقافتهم تؤكدها آيات بينات أخرى من الذكر الحكيم، تجعل المؤمنين بالمبعوث رحمة للعالمين محمد ﷺ، خاتم النبيين والمرسلين، يُقِرّون كذلك، ويؤمنون بجميع الأنبياء السابقين، على حد سواء، منهم عيسى- عليه السلام-، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[6]

وهذا الإقرار والإيمان مطلوب من المسلم المؤمن، لأن الدين عند الله واحد، وإن اختلفت الشرائع، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾[7]

وقوله جل وعلا: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[8]

ثم عَقَّب بعد الآيات نفسها، مخصصا ما كان عاما، فخاطب رسوله محمدا ﷺ بقوله: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[9]

هذا جانب من الخطاب في القرآن الكريم، وقد كان في النبيئين والرسل وفي أهل الكتاب، وقد شمل النصارى بصفة عامة، أما الذي كان فيهم بصفة خاصة فما أكثره. وفي إطار موضوعنا المحدد أعلاه: (تبيان القرب الحاصل بين المسلمين والنصارى، نجد: من الخطاب **ما يُعلِم ويُخبر**، ومنه: **ما يُعلِم ويُزكّي**، ومنه: **ما يُوَجّه ويُرشِد**، ومنه: **ما يُوقظ العقل ويُلفِت الانتباه**، ومنه: **ما يُذكّر بالنعمة والفضل**.

خطابٌ يُعلِم ويُخبِر:

من النماذج القرآنية في هذا الخطاب قوله جل وعلا: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[10]

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾[11]

وقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[12]

في الآيات السابقة الذكر بسورة (الجاثية) بَيّنَ المولى جل وعلا المميزاتِ التي مَنَّ بها على بني إسرائيل، من إتيان الكتاب، والحكم، وجَعْل الأنبياء فيهم، وتمييزهم على كثير من عباد الله، ووضَّح الصورة التي هُمْ عليها عند مجيء محمد ﷺ، ثم وجه

الخطاب إلى صاحب الرسالة الخاتمة، موجها ومرشدا، قائلا: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[13] تاركا الحكم والقرار لمن تصل إليه هذه المعطيات المعرفية، وهذا التوجيه والإرشاد، في فسحة للإيمان والاعتقاد، وفي فسحة للنظر والاجتهاد، وفي فسحة لتتبع الدراسات المعرفية المختلفة وإدراك الأبعاد، ثم عقب في السياق، في آخر المطاف قائلا: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[14]

خطابٌ يُعلِم ويُزكّي:

منه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[15]

ومنه قوله: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾[16]

خطابٌ يُوَجِّهُ ويُرْشِد:

منه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[17]

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ ﴾[18]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[19]

خطابٌ يوقظ العقل، ويُلفِتُ الانتباه:

كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[20]، وفي قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾[21]، وفي قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ﴾[22]

خطابٌ يُذكّر بالنعمة والفضل:

من ذلك، وهو يذكر بالنعمة على (عيسى) عليه السلام، وأمه (مريم)، قوله جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

ومنه قوله وهو يذكر الحوارين بفضله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا

وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[23]

خطابٌ تفصيلي لشأن صاحبه:

ولمكانة (المسيح) عليه السلام وأمه (مريم) عليها السلام في الديانة الإسلامية، وَرَدَ الحديث عنهما وعن النصارى بتفصيل وتوضيح كما جاء- مثلا- في سورة (آل عمران) من الآية: (33) إلى الآية: (68)، وهذه آياتها الأولى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ إلى آخر الآيات.

ومِثْلُ ذلك في سورة (مريم): كان التفصيل في شأن (زكرياء) عليه السلام، وكان التفصيل في شأن (المسيح) وأمه عليهما السلام، وذلك من أول السورة إلى الآية: (40).

نتيجةُ الخطاب القرآني في خدمةِ السَّلَام،[شهادة ونموذجٌ مِنْ واقعِنا]:

إن الخطاب القرآني قد أنتج فكرا إسلاميا راقيا ساميا، يشهد له كل عاقل منصف، الصديق منه والعدو، في القديم وفي الحديث.

وعلى هذا فإنا سنستشهد في مقامنا هذا، وفي ختام كلمتنا، بتصرفٍ حصَلَ في الواقع الاجتماعي والسياسي في الجزائر، كان لِعَالِمَيْنِ مِنْ علمائها دورٌ فعّال، وهما مِنَ الأعضاء المعتَبَرين في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، إنهما: الشيخ (عبد الحميد بن باديس)، والشيخ (الطيب العقبي). حصل هذا التصرف الإنساني، بل الإسلامي، أيام جثوم الاستعمار الفرنسي على ظهران الجزائريين.

إن الذي سنذكره كان المرتكز في كلمة ممثل الديبلوماسية الأمريكية بالجزائر (ويليام جوردان)، قبل أيام قليلة من مؤتمرنا هذا، وبالضبط: يوم 3 جويلية 2011م، في ذكرى استقلال بلاده، ونشرت الخطابَ كاملا جريدةُ: (الشروق اليومي) الجزائرية.[24]

إنه وإن كانت لكلمته قراءات أخرى، وأبعاد أخرى، قد ترقى إلى الخطورة، إلا أنا سنستفيد منها ما يتناسبُ ومقامَنا هذا: القرآنُ وإعدادُ جيل سليم التفكير، يحقق الأمن والسلام.

لقد بَيَّن ممثل الدبلوماسية الأمريكية أنه: "خلال الحرب العالمية الثانية حاول الفاشيون تجريد اليهود في الجزائر من ممتلكاتهم وحقوقهم، وعرضوا على المسلمين الجزائريين مكافأة مغرية في حال مساعدتهم، فحشد الشيخ (الطيب العقبي)، الذي كان يتبنى نفس أفكار ومبادئ العلامة (عبد الحميد بن باديس) الملأ للدفاع عن جيرانهم اليهود الذين كانوا يواجهون خطرا شخصيا هائلا. أصدر الأئمة في جميع أنحاء البلاد فتاوى ضد الاغتناء على حساب معاناة الآخرين.""[25]

وبَيَّن ممثل الديبلوماسية الأمريكية أنه على الرغم من فقر الأهالي، - وطبعا بسبب سياسة الاستعمار القمعية التمييزية - رفض المسلمون العَرْض المغري، إذ يضيف قائلا: "على الرغم من فقرهم، رفض المسلمون الجزائريون قبول العَرْض، وواجه الجزائريون البسطاء خطرا كبيرا في سبيل الدفاع عن شرف الانسانية".[26]

فهذا الجانب الإنساني المتمكن عند المسلمين الجزائريين، خاصة، وعامة، إنما كان بفضل التنشئة الإسلامية، والتنشئة القرآنية.

هذا، وإن السفير الأمريكي (جوردان) - في نفس الخطاب - يذكر أنه في الجزائر وفي ظل الحكم العثماني لم يجد المسلمين ممانعين من الاعتراف بأمريكا التي تحصلت على استقلالها حيث يقول: "اكتشفتُ أنه منذ ما يقرب من 200 عاما وطئت قدما أول مبعوث أمريكي (جون لام) الجزائر، للتفاوض على معاهدة السلام والصداقة، وكان ذلك عام: 1785م، بعد سنتين فقط من حصولنا على استقلالنا... وقد حل بالجزائر أول مبعوث مقيم أمريكي بعد ذلك بعامين، مما جعل (الجزائر) سادس دولة في العالم لديها بعثة أمريكية دائمة، والأولى خارج أوربا".[27]

فهذا نموذج حي ذكرناه لنبيّن ما ينتجه القرآن الكريم في التربية والتكوين، من قبول الآخر والتعايش معه، لا التصادم المزعوم والمروج له اليوم، آملين إعداد الناشئة المسلمة على القرآن: (الكون الملحوظ)، ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[28]، وعلى القرآن: (الكتاب المحفوظ)، ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾[29]، على أن تتوالى الجهود

للعناية بالقرآن الكريم مطلقا، {فهو أول ما ينبغي أن يتعلم من علم الله هو}، كما أوصانا الرسول المصطفى ﷺ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(1) سورة المائدة:5/ الآية:82.

(2) محاضرة الشيخ زايد سعيد محمود من جامع الأزهر الشريف كانت في الموضوع، وكان طرحه كاف شاف.

(3) سورة المؤمنون:23/الآيات:49-52.

(4) سورة (الأنبياء):21/ الآية:92.

(5) سورة (الأنبياء):21/ الأيات:89-92.

(6) سورة (البقرة):2/ الآية:285.

(7) سورة (الشورى):42/ الآية:13.

(8) سورة (النساء):4/ الآيات:163-165.

(9) سورة (النساء):4/ الآية: 166.

(10) سورة (الصف):61/ الآية:6.

(11) سورة (الصف):61/ الآية:14.

(12) سورة (الجاثية):45/ الآية:15-17.

(13) سورة (الجاثية):45/ الآية:18.

(14) سورة (الجاثية):45/ الآية:20.

(15) سورة (المائدة):5/ الآية:69.

(16) سورة (المائدة):5/ الآيات:82-85.

(17) سورة (المائدة):5/ الآيات:77-81.

(18) سورة (المائدة):5/ الآية:68.

(19) سورة (المائدة):5/ الآيات:46-48.

(20) سورة (آل عمران):3/ الآيات:59-61.

(21) سورة (المائدة):5/ الآية:59.

(22) سورة (آل عمران):3/ الآية:110.

(23) سورة (المائدة):5/ الآيات: 111-115.

(24) جريدة (الشروق اليومي) الجزائرية، عدد: 3344، الصادرة بتاريخ: 04 جويلية 2011م.

(25) المصدر نفسه.

(26) المصدر نفسه.

(27) المصدر نفسه.

(28) سورة (العلق):96/ الآية:1.

(29) سورة (البروج):85/ الآيات:21- 22.